العصور الاموية

دولة بني أمية

كان بنو أُميّة وبنو هاشم حياً واحداً ينتسبون لعبد مناف وهم من اشراف عرب قُريش وساداتهم، الاّ ان بني امية كانوا اكثر عدداً من بني هاشم . وكان لهم قبل الاسلام شرفٌ وفخر. فلما مات عثمان بن عفّان وهو الخليفة الثالث من بني هاشم اختلف الناس على خلافة علي بن ابي طالب لانه من آل هاشم ورجعوا الى امر العصبيّة الطبيعية التي لا تفارق الانسان. الا ان عساكر علي كانت في ذلك الوقت اكثر عدداً لتوطيد كرسي الخلافة . فلم يكن سبيل لبني أُميّة او غيرها من طوائف العرب ان تغتصب الخلافة منه. ولكن لكثرة حروبه الخارجية مع الانشقاقات والتحزبات الداخلية ضعفت شوكة بني هاشم فنهض معاوية بن ابي سفيان الاموي في طلب الرئاسة والاخذ بثأر عثمان بن عفّان من علي بن ابي طالب، مع ان عليّاً لم يكن له شركة في قتله، ورفض حق علي بالخلافة فوافقه على ذلك جماعة من الاشراف والاكابر

من جملتهم عمرو بن العاص الذي كان يومئذٍ عاملاً في مصر وبايعوه الخلافة . وجرت بين علي ومعاوية وقائع هائلة قُتل فيها الوفٌ كثيرة من القواد والفرسان واكابر الاعيان ثم تهادنا وافترقا .

وبعد موت علي قويت شوكة معاوية وانحطت منزلة الحسن ابن علي فخلع نفسهُ من الخلافة خوفاً من العواقب . واتفقت الجماعة على بيعة معاوية فبايعوهُ في منتصف سنة احدى واربعين للهجرة . فانتقلت الخلافة الى بني امية ومن ذلك الوقت صارت وراثةً بعد أن كانت انتخابية واستمرت بيد الخلفاء الامويين يتداولها اربعة عشر شخصاً منهم على التعاقب الواحد بعد الآخر . وكانت سلطنتهم ممتدة على مصر والحجاز والهند والصين وخراسان والمشرق وافريقية والاندلس وسائر اقطار الاسلام . وكان كرسي مملكتهم في دمشق الشام . كما كانت المدينة قاعدة الخلفاء الراشدين . واستمرت خلافتهم نحو احدى وتسعين سنة كانت الكلمة الاولى فيها للعرب . فمنهم أمراء الجيش والكتّاب والحكّام وسائر ارباب الوظائف الكبرى . وكانوا يحسبون غير العرب اتباعاً لهم حتى انهم لم يكونوا يكنّونهم بالكنى ولا يدعونهم الا بالاسماء والالقاب ولا يمشون في الصف معهم .

ترفهم وبذخهم : عُرف عصر الراشدين قبلهم بالزهد والبساطة

والاقتصاد، فلما انتقلت الخلافة الى بني أمية اخذوا يسلكون مسلكاً مغايراً لمسلك الخلفاء الأوَل . فابتنوا القصور واقاموا الحراسَ ولبسوا الثياب الفاخرة وركبوا الخيول المطهمة، وكانوا ينفقون الاموال على انواع الملاهي، ولم يشذّ منهم الاّ الخليفة عُمر بن عبد العزيز الذي سار في سبيل الراشدين ونحداهم في سلوكهم . وكانوا شديدي الغيرة على العصبية العربية فعززوا اللغة ونشطوا علماءها وبذلوا الادباء العطايا . واستعملوا الشعراء في اغراضهم السياسية فأقبلوا عليهم من كل صوب لان الشعر كان سلاح الاحزاب السياسية يومئذ من اموية وعلوية ويمنية وقيسية وغير ذلك .

معاوية بن ابي سفيان

تولى الخلافة سنة ٤١ هـ (٦٦١ م) وتوفي بعد عشرين سنة

معاوية هو ابن صخر بن حرب بن أُمية . بويع بالخلافة بعد مقتل عليّ واستوعبها بعد تسليم الحسن الامر اليه . فهو مؤسس الدولة الاموية في الشام واول خلفائها وبطل الاسلام بعد النبي واعظم رجل قام فيه ، وأحد دهاة السياسة المشهورين . كان عاقلا لبيباً كريماً حسن التدبير حليماً صبوراً على المكاره والاذى. قال عبد الله بن العباس: ما رأيت أليقَ منه بالرئاسة والملك .

وكان يهتم بشؤون الدولة اهتماماً شديداً ويقوم بامور الرعية خير قيام . فهو الذي نظم البريد في الدولة وانشأ ديوان التوقيع او الخاتم . واتخذ حزم الكتب ولم تكن تحزم قبلهُ . وكان مغرماً باخبار الملوك والامراء حريصاً على قراءتها . وكان لهُ داهيتان يعينانهِ برأيهما في المشاكل وبسيفهما في الحروب، وهما عمرو بن العاص فاتح مصر وزياد ابن ابيه الذي الحقهُ بنسبهِ وكان اولاً خصمهُ فارضاه وملك قلبه .

خطته : اما الخطة التي سار عليها معاوية في سبيل وصولهِ الى الخلافة وتحقيق غايتهِ فهي انهُ ادرك بصائب رأيهِ وبُعد نظرهِ ان لا أمل له في ابناء الحجاز ولا في ابناء العراق لتأييد دعوتهِ ونصرتهِ ، وذلك بسبب التنازع الذي كان بينهُ وبين علي بن ابي طالب في بادىء الامر والذي كان عبارة عن جهاد بين دمشق والكوفة والمدينة للاسبقية والسيادة . فعلّق كل آماله على بني الشام المسيحيين فقرّبهم اليه واتخذهم حزباً له وعوناً ، وجعل كبارهم من خاصته ، وقلدهم المناصب العليا فنظّم من عامتهم جيشاً هو الذي في ايام خلفائهِ فتح الاندلس ونشر الراية العربية خافقة ظافرة من غربي الكرة حتى شرقيها .

ولقد نجح في خطتهِ هذه بطاعة أهل الشام لهُ اي اخلاصهم وامانتهم واستعدادهم للخدمة ، فوضع عليهم اعتماده واتكاله لاسيما

الغساسنة من الحزب اليمني الذين اتخذهم انصاراً لهُ. فتزوج امرأة مسيحية هي «ميسون» من قبيلة عربية كانت ترتاد الصحراء بين حمص وتدمر. وسمّى ابنها يزيد خلفاً لهُ من بعدهِ وحمل الناس على مبايعته فنجح (لانهُ ادرك ان لا بدّ لثبات الملك وصيانة العرش وحسماً للمطامع الشخصية والحروب الاهلية من انشاء سنّة تقضي بتعيين خلف للخليفة يعقبهُ بعد وفاتهِ). وبهذه الوسيلة جعل الملك وراثة في الاسلام اعتباراً من سنة ٥٦ هـ وعيّن شاعراً خاصاً لهُ هو الاخطل الذي كان يدخل على الخليفة ينشد القصائد والصليب على صدرهِ. وجعل ابن اثال المسيحي طبيباً لهُ. وابقى كاتب الديوان منصور بن سرجون جد القديس يوحنا الدمشقي في منصبهِ (وكانت كتابة الديوان في ذلك العهد اهم وظيفة بعد الخليفة تقابل في ايامنا وزارة المالية او الصدارة العظمى عند العثمانيين).

ومن البراهين الساطعة على ثقة معاوية ببني الشام وصيّته لابنه يزيد حيث قال: «يا بنيّ، اني قد كفيتك الشد والترحال، ووطّأت لك الامور، وذلّلت لك الاعداء، واخضعت لك رقاب العرب، وجمعت لك ما لم يجمعه احد، فانظر اهل الحجاز فانهم اهلك، وانظر أهل العراق فان سألوك ان تعزل كل يوم عاملاً فافعل، وانظر اهل الشام وليكونوا بطانتك، فان رابك من عدوك شيءٌ

فانتصر بهم . »

ومن الصفات التي تحلى بها معاوية « الحلم » واصالة الرأي وبُعد النظر وحسن السياسة ووضع الامور في محلها . ولقد قال ما ينمُّ عن وجود هذه الخلّة فيه التي مكنته من جذب القلوب حتى الاعداء منهم الى طاعته : « لا اضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو ان بيني وبين الناس شعرةً ما انقطعت ، اذا مدّوها خليتها واذا خلوها مددتها . »

غزواته : سيّر معاوية سنة ٤٨ هـ (٦٦٩ م) جيشاً كثيفاً مع سفيان بن عوف لمحاربة الرومانيين وافتتاح مدينة القسطنطينية . ويقال انهُ غزاها خمسة اعوام متتابعة فكان يقصدها في زمن الصيف ويرجع منها في فصل الشتاء ولم يتمكن منها ، فخسر مراكبه وجيوشه واضطر ان يتحول عن المدينة رغماً وقهراً بعد أن عقد صلحاً مع ملك الروم على شرط ان يمنع الملك سطو المردة على سواحل سورية من السويدية الى تخوم المدينة المقدسة (اورشليم) ويدفع له خراجاً على مدة ثلاثين سنة .

ومما يروى ان احد القياصرة كتب الى معاوية : اخبرني عمن لا قبلة لهُ ؟ وعمن لا اب لهُ ؟ وعمن لا عشيرة لهُ ؟ وعمن سار به قبرهُ ؟ وعن ثلاثة اشياء لم تخلق في رحم ؟ وعن شيء ونصف شيء ولا شيء وابعث اليّ في هذه القارورة بكل شيء .

فبعث معاوية بالكتاب والقارورة الى ابن عبّاس فقال :

اما من لا قبلة له « فالكعبة ». واما من لا اب له « فعيسى ». واما من لا عشيرة لهُ « فآدم ». واما من سار بهِ قبرهُ فيونس « بونان ». واما ثلاثة اشياء لم تخلق من رحم « فكبش ابراهيم وناقة ثمود وحية موسى ». واما شيء « فالرجل لهُ عقل يعمل به ». واما نصف الشيء « فالرجل ليس لهُ عقل ويعمل برأي ذوي العقول ». واما لا شيء « فالذي ليس لهُ عقل ولا يستعين برأي غيرهِ » .

ثم ملأ القارورة ماءً وقال هذه بزر كل شيء فبعث بها الى معاوية وهذا بعث بها الى القيصر. فلما وصل الكتاب والقارورة قال : ما خرج هذا الا من اهل بيت النبوة .

وفي سنة ٥٦ هـ (٦٧٥ م) ادركت الوفاة معاوية في شهر رجب وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وثلاثة اشهر وسبعة وعشرين يوماً ، وكان عمره خمساً وسبعين سنة وقيل اقل. وعهد بالخلافة بعده الى ابنهِ يزيد .

يزيد بن معاوية ومقتل الحسين بن علي : يزيد هو الثاني من خلفاء بني أُمية . بويع بالخلافة بعد موت ابيهِ سنة ٦٠ هـ (٦٨٠م) وكان عبد الله بن الزبير ينافسه في الخلافة فارسل يزيد جيشاً غزا المدينة وحاصر الكعبة ورماها بالنار لانه عرف ان عبد الله بن

الزبير متحصن فيها . وما زال اهل الشام كذلك حتى بلغهم نعي يزيد بن معاوية . فقد انتقم منه بعض شيعة اهل البيت لقتله الحسين بن علي ، حيث دسّوا له السم في الشراب عندما عرّج في احدى رحلاته على دير بحيراء في حوران فهلك . وأشيع أنه أُصيب بداء الجنب والبحّة فذاب ذوبان الرصاص ، وكانت منيته لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الاول سنة ٦٤ هـ (٦٨٤ م) ومدة خلافته ثلاث سنين وستة اشهر . اما مقتل الحسين ابن الامام علي في خلافة يزيد فهكذا كان :

لما بويع بالخلافة ليزيد وردت على الحسين مكاتبات من اهل الكوفة يحثونه على المسير اليهم ليبايعوه . فارسل ابن عمه مسلم ابن عقيل ليأخذ البيعة عليهم . فبايع الحسين بها نحو من ثلاثين الف رجل ، وكان عامل يزيد على الكوفة عبيد الله بن زياد ، فهذا قاتَلَ الحسين ورجاله في واقعة كربلاء الشهيرة . فإن رجال عبيدالله المذكور قتلوا الحسين واحتزوا رأسه فأرسله ابن زياد الى الخليفة يزيد مع نسائه وأطفاله فأمر يزيد بارسال النساء والاطفال الى المدينة . فلما وصلوا اليها لقيهم نساء بني هاشم حاسرات وفيهن ابنة عقيل بن أبي طالب وهي تبكي وتقول :

ماذا تقولون ان قال النبيُّ لكم
مـاذا فعلتم وانتم آخر الامم

بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي
منهم أسارى وصرعى تُضرّجوا بدمِ

ما كان هذا جزائي اذ نصحت لكم
ان تخلفوني بسوءٍ في ذوي رحمِ

وكان مقتل الحسين في يوم كربلاء سنة ٦١ هـ (٦٨١ م).
ويوم كربلاء تمثله الشيعة كل سنة تمثيلاً مؤثراً فيندبون شهيدها ويعدّدون فضائله.

معاوية بن يزيد ومروان بن الحكم: لما توفي يزيد بويع بالخلافة ابنه معاوية الثاني ابن يزيد بن معاوية الاول فكان الثالث من بني أميّة. لكن مدة ولايته لم تكن الا ثلاثة أشهر. وقيل أربعين يوماً ومات وعمره احدى وعشرون سنة على ان المبايعة لمعاوية لم تستوعب الامة لان أهل مكة بايعوا عبد الله بن الزبير بعد موت يزيد وكذلك أهل مصر والبصرة فاجتمعت له العراق والحجاز واليمن، وبايعهُ في الشام سراً الضحّاك بن قيس والنعمان ابن بشير الانصاري بحمص وزُفر بن الحارث الكلابي بقنسرين، وبايع سائر الناس بالشام مروان بن الحكم فكان الرابع من بني أميّة فاجتمعت اليه بنو أميّة وصار الناس بالشام فرقتين: اليمنية مع مروان، والقيسية مع الضحاك وهم يبايعون لابن الزبير، فكثر

الشغب بينهم. ثم التقى الفريقان «بمرج راهط» في غوطة دمشق واقتتلوا قتالاً شديداً كانت الكرة فيه على الضحاك والقيسية فانهزموا شر هزيمة، وقُتل الضحاك مع ثمانين رجلاً من أشراف أهل الشام وقُتل كثيرون من أصحاب مروان. وكانت هذه الوقعة في المحرّم سنة ٦٥ هـ فدانت أعمال الشام كلها لمروان. ثم بايع أهل مصر مروان فاستتب له الامر في الشام ومصر وابن الزبير في العراق والحجاز واليمن.

وكانت مدة خلافة مروان تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً. وتوفي في رمضان سنة ٦٥ هـ (٦٨٥ م).

عبد الملك بن مروان: لما مات مروان بويع ابنه عبد الملك بالخلافة في ثالث رمضان سنة ٦٥ هـ (٦٨٥ م) وهو الخامس من خلفاء بني أُمية. قال فيه القرماني في تاريخ الدول: هو اول من سُمّي بعبد الملك في الاسلام. وأول من غدر ونهى عن الأمر بالمعروف. وأول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء. وأول من ضرب الدنانير والدراهم بسكة الاسلام وكتب عليها آي القرآن، وكتب فيها ضُرب بمدينة كذا والتاريخ. وكان على الدنانير نقش بالرومية وعلى الدراهم نقش بالفارسية. وبالغ في تخليص الذهب والفضة من الغش وزاد ابن هبيرة عليه في ايام يزيد بن عبد الملك ثم زاد خالد القسري عليهم ايام هشام

ثم افرط يوسف بن عمر بعدهم في المبالغة وامتحان العيار فكانت الهُبَيريَّة والخالدية واليوسفية أجود نقود بني أميَّة. وكان قبل الخلافة متعبداً ناسكاً فقيهاً واسع العلم، وكان يلقب بحمامة المسجد.

ذكر عنه أبو الفداء في تاريخه قال: انه لما أتته الخلافة كان قاعداً والمصحف في حجره فقال: هذا آخر العهد بك.

غزواته: لما رقي عبد الملك العرش كان الشقاق في الدولة ضارباً أطنابهُ حتى كاد يخشى عليها من التمزق. وكان عبد الله ابن الزبير قد اشتد أمره فبايعه أهل الحجاز وأهل العراق وبعض الشام فصرف عبد الملك همه في أول الامر الى قمع الفتن ومعاقبة الفاتنين، اعانهُ على ذلك قائدهُ المشهور الحجاج بن يوسف الذي حاصر الكعبة ورماها بالمنجنيق كما فعل جيش يزيد من قبل حتى تمكن من ابن الزبير وقتلهُ، وكان عبد الملك قد قتل مصعباً أخ عبدالله بن الزبير عامله على العراق وأهرق دماء الالوف من الرجال فخلصت الأحوال لبني أميَّة.

أما أخلاقه فتظهر من خطبته التالية كما رواها العقد الفريد قال: «أيها الناس، اني والله ما أنا بالخليفة المستضعف (يريد عثمان بن عفان) ولا بالخليفة المداهن (يريد معاوية) فمن قال برأسه كذا قلنا بسيفنا كذا...» وكانت مدة خلافته بعد

قتل ابن الزبير ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر الاّ سبع ليالٍ . ومذ بويع بالشام الى وفاته احدى وعشرين سنة . توفاه الله في منتصف شوال سنة ٨٦ هـ (٧٠٦ او ٧٠٧ م) وكان عمره اذ ذاك ستين سنة وقيل ثلاثاً وستين .

وقبل وفاته أوصى بنيه قائلاً: يا بَنيّ، أوصيكم بتقوى الله فانها أزين حلية وأحصن كهف . ليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير حق الكبير، ولا تدبّ بينكم العقارب، وكونوا للمعروف مناراً فان المعروف يبقى اجرهُ وذخرهُ وذكرهُ، وتعهدوا ذنوب أهل الذنوب فان استقالوا فأقيلوا وان عادوا فانتقموا .

الوليد بن عبد الملك بن مروان : ويكنى أبا العباس . هو السادس من خلفاء بني أمية . بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه عبد الملك سنة ٨٦ هـ (٧٠٦ م) وكان أسمر طويلاً حسن الوجه ذا سطوة شديدة لا يتوقف اذا غضب . وكان معماراً (اي ولعاً بالبناء) فقد بنى الجامع الكبير بدمشق المشهور بالجامع الاموي وانفق عليه الاموال الطائلة . وكان في جانب الجامع كنيسة للنصارى تُعرف بكنيسة مار يوحنا فهدمها الوليد وأدخلها في الجامع، وبنى المسجد الاقصى بالقدس، وشيّد مسجد النبي وهو جامع المدينة الكبير وأدخل فيه المنازل التي كانت حوله وحجرات

أزواجه، وانفذ على عامله على مكة ثلاثين ألف مثقال ذهباً أحمر فصفّح به باب الكعبة والميزاب والاساطين. وهو أول من اتخذ البيمارستان للمرضى ودار الضيافة وبنى الاميال في الطرقات. ولما دُفن والدهُ عبد الملك دخل الوليد المسجد وصعد المنبر فخطب قائلًا: إنّا لله وإنّا اليه راجعون. والله المستعان على مصيبتنا بموت أمير المؤمنين والحمد لله على ما أنعم به علينا من الخلافة. قوموا فبايعوا. قالوا فكان أول من عزّى نفسه وهنأها. فقام عبدالله بن همام السلولي وقال:

الله أعطاك التي لا فوقها
وقد أراد المشركون عوقها

عنك ويأبى الله الا سوقها
اليك حتى قلّدوك طوقها

فبايعه ثم بايعهُ الناس بعده. ومما قاله الوليد في خطبته حينئذٍ: أيها الناس، عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة، فان الشيطان مع المنفرد.

غزواته: في أيامه فُتحت الفتوحات الكثيرة، منها فتح الاندلس، فتحها طارق بن زياد وحُملت منها مائدة سليمان الحكيم وهي من ذهب وفضة وعليها أطواق ثلاثة من لؤلؤ. ومنها

فتح الهند وبلاد الروم والترك فترامت أطراف السلطنة العربية من الصين شرقاً الى المحيط الاتلانتيكي غرباً، ومن البحر الاسود شمالاً الى صعيد مصر جنوباً. قال ابن عبد ربه في العقد الفريد: كان الوليد عند أهـــل الشام أفضل خلفائهم واكثرهم فتوحاً وأعظمهم نفقة في سبيل الله. وكانت مدة خلافته تسع سنين وسبعة أشهر. ودفن بدمشق خـارج الباب الصغير في منتصف جمادى الآخرة سنة ٩٦ وعمره ثمانٍ وأربعون سنة. وكان نقش خاتمه: «يا وليد انك ميتٌ ومحاسَبٌ.»

سليمان بن عبد الملك بن مروان: هو أبو أيوب. السابع من خلفـاء بني أميّة. بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه. فأحسن السيرة وردّ المظالم وفك الاسرى وأطلق أهل السجون. وكمل عمارة الجامع الاموي واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيراً له. وكان أعرج طويلاً جميلاً أبيض فصيحاً أديباً معجباً بنفسه مغرماً بالنساء. وكان نهماً كثير الاكل وبالغوا بوصف كثرة أكله. قيل انه أكل سبعين رمانة وجدياً وست دجاجات في أكلـة واحدة. وختم الطعـام بارطال من الزبيب. وقـد اصطنعوا الكنافة في أيامه فكان يتسحّر في ليالي رمضان بكثير منها. مات شهيد الثمره متخوماً. وذلك ان أحـد نصارى دابق اتاه بزنبيلين مملوءين تيناً وبيضاً فأمر من يقشر له البيض وجعل يأكل

بيضة وتينة حتى أتى على الزنبيلين ثم اتوه بمخ ومقدار كبير من السكر فأكله فأتخم ومرض فمات .

غزواته : في ايامه غزا أخوهُ مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم . وفي سنة ٩٦ هـ (٧١٥ م) خرج سليمان بالجيوش لغزو القسطنطينية فنزل بمرج دابق في جهة قنسرين وسيَّر اخاه مسلمة اليها وأمره ان يقيم فيها حتى يفتحها . فشتّى فيها وزرع الناس بها الزرع وأكلوهُ حتى جاءَه الخبر بموت سليمان أخيه فانصرف عنها .

وفي سنة ٩٨ هـ بايع سليمان ابنه ايوب وجعله ولي عهده . وكانت وفاته في عاشر صفر سنة ٩٩ هـ (٧١٨ م) توفي بذات الجنب بدابق وعمره خمس واربعون سنة . وكانت مدة خلافته سنتين وثمانية اشهر . ونقش خاتمه : «**آمنت بالله مخلصاً .**»

عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم : ويكنى أبا حفص . وهو الثامن من خلفاء بني أميَّة . كان عالماً أديباً وعفيفاً زاهداً ناسكاً . وكان سبب اسناد الخلافة اليه هو انه لما اشتد مرض سليمان بن عبد الملك كتب كتاب العهد لابنه ايوب ولم يكن بالغاً فردَّه عن ذلك كاتبه رجاء بن حياة فقال له الخليفة : ما ترى في ابني داود ؟ فقال له : هو غائب عند القسطنطينية وانت لا تدري احيٌّ هو أم ميت . قال : فمن اذاً ؟ قال : رأيك يا أمير

المؤمنين . قال : فما ترى في ابن عمي ووزيري عمر بن عبد العزيز؟ فقال: أعلمه والله فاضلاً خيّراً. فكتب لهُ وأمر رجاء ان يذهب بالكتاب الى أهل بيته وأمرهم أن يبايعوا من فيه فبايعوا عُمَر بدابق يوم الجمعة عاشر صفر سنة ٩٩ هـ. وكان أسمر نحيفاً حسن الوجه يؤثر دينه على دنياه وفي وجهه شجة من دابةٍ ضربته. ثم جيءَ بمراكب الخلافة فقال عُمر: قرّبوا اليّ بغلتي. وأنشد :

ولولا التقى ثم النهى خشية الرّدى
لعاصيت في حبِّ الهوى كل زاجرِ

قضى ما قضى فيما مضى ثم لا ترى
له حبوةً اخرى الليالي الغوابرِ .

ثم قال ان شاء الله وخطب فقال : أيها الناس ، من أطاع الله تعالى وجبت طاعته ومن عصى الله عزّ وعلا فلا طاعة له . أَطيعوني ما أطعتُ الله فان عصيته فلا طاعة لي عليكم .

ومن بواكير اعماله انه اشترى مَلَطْيَةَ من الروم ، وهي بلد غربي الفرات ، فبناها وعمرها. وانهُ أبطل سب علي بن أبي طالب . وكان خلفاء بني أمية يسبونه في خطبهم على المنابر منذ سنة ٤١ هـ التي خلع فيها الحسن ابنه ونفسه من الخلافة . ولما خطب أبدل السب في آخر الخطبة بقراءة الآية « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء

والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكّرون» فلم يُسب علي بعد ذلك . وفيه يقول الشريف السيد الرافعي الموسوي :

يا ابن عبد العزيز لو بكتِ العينُ
فتًى من أُميّةٍ لبكيتُكْ

انت نزّهتنا عن السبّ والشتم
فلو كنتُ مجزياً لجزيتُك

غير اني أقول انك قد طبتَ
وان لم يطب ولم يزكُ بيتُك

وقد مدح ابن عبد الرحمن الخزاعي عمر فقال :

وليت فلم تشتم عليّاً ولم تخف
بريّاً ولم تتبع سَجيّة مجرمِ

وقلتَ فصدقتَ الذي قلتَ بالذي
فعلتَ فاضحى راضياً كلُّ مسلمِ

فما بين شرق الارض والغرب لم يكن
منادٍ ينادي من فصيحٍ واعجمِ

يقول امير المؤمنين ظلمتني
باخذٍ لدينارٍ ولا اخذِ درهمِ

فأربحْ بها من صفقةٍ لمبايعٍ
وأعظِمْ بها اعظمْ بها ثم اعظمِ

وقال ابو الفداء : وتوفي عمر بن عبد العزيز بخناصرة لخمس بقين من رجب سنة ١٠١ هـ (٧٢٠ م) وكانت خلافتهُ سنتين وخمسة اشهر وعمرهُ اربعين سنة . ودفن بدير سمعان من اعمال معرّة النعمان . وكان موتهُ بالسم . وذكر القرماني وابن عساكر ان عُمر كان شدد على اقاربهِ وانتزع كثيراً مما غصبوهُ فسقوهُ السم . وكان نقش خاتمه : «الوفاء عزيز .»

يزيد بن عبد الملك بن مروان : وكنيتهُ ابو خالد . هو التاسع من خلفاء بني أميّة . بويع بالخلافة في خامس عشر رجب سنة ١٠١ هـ (٧٢٠ م) بعد موت عمر بن عبد العزيز عملاً بعهد اخيه سليمان بن عبد الملك ان تكون الخلافة لهُ بعد عُمر . وكان جميلاً جسيماً ابيضَ مدور الوجه شديد الكبر عاجزاً .

وفي السنة الاولى لخلافتهِ خرج عليه يزيد بن المهلّب والي خراسان . وكان عمر بن عبد العزيز حبس ابن المهلّب ففر من الحبس لما بلغهُ خبر مبايعة يزيد بن عبد الملك واجتمع اليه جمع كثير ، فارسَل يزيد الخليفة اخاه مسلّمة فقاتلهُ وقتلهُ وجميع آل المهلب ، ثم ولاّهُ اخوه يزيد على العراق وجمع لهُ ولاية البصرة والكوفة وخراسان . ولما ولي يزيد سار بسيرة عمر بن

عبد العزيز (سالفه) مدة طويلة غير انهُ انخدع بمشايخ دمشق وانقاد لجهّال الشاميّين الذين حلفوا لهُ ان ليس على الخلفاء حساب ولا عقاب في الآخرة فاقبل على لذاته . وكان له جارية مشغوف بها اسمها حُبَابة فاختلى بها تغنّيه وامر ان يحتجب عن سمعه وبصره كل ما يكره . فبينما هو على تلك الحال في صفو عيشه وزيادة فرحه وسروره اذ تناولت حُبَابة رمانة من رمّان بيت راس الكبير الحب وهي تضحك فشرقت بحبّة منها فماتت . فنكد عيشه وذهب سروره ووجد عليها وجداً شديداً . قيل لما ماتت حبابة تركها اياماً لم يدفنها . فلما دفنها نبشها وشاهدها حتى عوتب بذلك فدفنها ثم نبشها مرةً اخرى وشاهدها . ومن كثرة وجده عليها اعتراه مرض فمات بعدها وهو في حوران سنة ١٠٥ هـ (٧٢٤ م) لخمس بقينَ من شعبان . وكانت مدة خلافته اربع سنين وشهراً . وعمره تسع وعشرون سنة . وكان نقش خاتمه : «**فني الشباب يا يزيد .**»

هشام بن عبد الملك : عهد بالخلافة بعد يزيد الى هشام اخيه ابن عبد الملك والى ابنه الوليد من بعد هشام لان ابنه كان صغيراً عمره احدى عشرة سنة . فبعد وفاته بويع اخوه هشام بالخلافة سنة ١٠٥ هـ (٧٢٤ م) فكان العاشر من خلفاء بني أُمية .

وكان هشام احول ابيض مسمناً منقلب العين ربعةً حازماً عاقلاً حريصاً ذا دهاء وحلم . ولهُ سياسة في الملك وتيقُّظ في امورهِ يباشرها بنفسهِ . وقد جمع من المال ما لم يجمعه خليفة قبلهُ . وفي ايامهِ خرج زيد بن علي بن الحسَين فبايعهُ جمع كثير من الشيعة بالكوفة . وكان الوالي على الكوفة من قبل هشام يوسف بن عمر الثقفي فجمع العسكر وقاتل زيداً ، فاصاب زيداً سَهمٌ في جبهتهِ فمات فتطلَّبهُ يوسف حتى دُلَّ عليه واستخرجهُ وصلب جثتهُ وبعث برأسهِ الى هشام فأمر بنصب الرأس بدمشق. وما زالت جثتهُ مصلوبةً حتى مات هشام وولي الوليد فأمر بحرق الجثة فأحرقت .

وفي ايامهِ ايضاً غزا مسلَمة اخوه آسيا الصغرى حتى القسطنطينية فغنم وعاد .

وتوفي هشام بالرصافة على عدوة الفرات ودفن هناك في سادس شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣ م) عن ثلاثٍ وخمسين سنة . وكانت مدة خلافتهِ تسع عشرة سنة وتسعة اشهر وبعض ايام . وكان نقش خاتمهِ : « الحَكَم الحكيم . »

الوليد بن يزيد بن عبد الملك : وكنيتهُ ابو العباس . هو الحادي عشر من خلفاء بني أُميَّة . بويع بالخلافة بعد موت هشام يوم الاربعاء لثلاثٍ خلونَ من ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣م)

ولهُ من العمر اربعون سنة ونيّف . وكان ابيض اللون ربعةً قد وخطهُ الشيب . وكان شاعراً فصيحاً غير انهُ عكف على شرب الخمر وسماع الغناء ومعاشرة النساء واستخف بالدين . وضيّق على اهل الشام واصحابهِ لكنهُ لم يخلُ من المبرّات ، فانهُ لما ولي اجرى على زمنى (جمع زمين وهو من بهِ عاهة او فقد بعض الاعضاء) اهل الشام وعميانهم وكساهم وزاد الناس في العطاء عشرات. وكان محسوداً في خلالهِ ومزاحَماً بكبار عشيرة بيتهِ من بني عمومتهِ مع لهوٍ كان يصاحبهُ اوجد لهم بهِ السبيل على نفسهِ . وقالوا لما تعرّض لهُ بنو عمهِ ونالوا من عرضهِ اخذ في مكافأتهم فضرب سليمان ابن عمهِ هشام مائة سوط وغرّبهُ الى مَعان في ارض الشام فحبسه الى آخر دولتهِ وحبس اخاه يزيد بن هشام وعدداً من ولد الوليد فرموهُ بالفسق والكفر . فثارت الرعية عليه وبايعوا يزيد بن الوليد الاول فركب الوليد بمن بقي معهُ وقاتل قتالاً شديداً ثم انهزم عنه اصحابه فدخل القصر واغلقهُ فحاصروه ودخلوا اليه وقتلوهُ واخذوا رأسه وسيّروهُ الى يزيد بن الوليد فسجد يزيد شكراً لله ووضع الرأس على رمحٍ وطيف بهِ في دمشق . وكان قتلهُ لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ (٧٤٥ م) وكانت مدة خلافتهِ سنة وثلاثة اشهر . وكان نقش خاتمهِ : «**يا وليد احذر الموت .**»

يزيد بن الوليد الاول : كان يكنى ابا خالد . وهو الثاني عشر من خلفاء بني أمية استقرت لهُ الخلافة بعد مقتل الوليد الثاني في ثامن عشر جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ (٧٤٥ م) . وكان اسمر نحيف البدن مربوعاً خفيف العارضين فصيحاً محمود السيرة مرضيّ الطريقة . لقد نقّص الجند العشرات التي زادها الوليد سالفهُ وقررهم على ما كانوا عليهِ ايام هشام فلقبوهُ «الناقص» . وفي ايامهِ خرج عليه أهل حمص فارسل اليهم عسكراً هزمهم واخذ البيعة ليزيد عليهم . وخرج عليه اهل فلسطين ايضاً فارسل اليهم جيشاً مع سليمان بن هشام بن عبد الملك فهزمهم في طبريّه واخذ البيعة بها ليزيد الخليفة . وكذلك اخذ البيعة من اهل الرملة . وقبل وفاتهِ عهد بالخلافة الى اخيه ابرهيم ومن بعدهِ لعبد العزيز ابن الحجاج بن عبد الملك . وتوفي في الطاعون بدمشق لعشر بقينَ من ذي الحجة سنة ١٢٦ هـ (٧٤٥ م) وعمرهُ اربعون سنة . وكانت خلافتهُ ستة اشهر وليلتين . وقيل خمسة اشهر واثني عشر يوماً . ونقش خاتمه : «**يا يزيد قم بالحق .**» وعن ابن الاثير كان : «**العظمة لله .**»

ابرهيم بن الوليد الاول ابن عبد الملك : وكنيتهُ ابو اسحق . هو الثالث عشر من خلفاء بني أمية . قام بالخلافة بعد موت اخيه يزيد غير انهُ لم يتم لهُ الامر فمكث اربعة اشهر . وقيل

سبعين يوماً. ودخلت سنة ١٢٧ هـ (٧٤٦م) وفيها سار مروان بن محمد بن مروان بن الحكم امير ديار الجزيرة الى دمشق الشام لخلع ابرهيم بن الوليد، فاتفق معهُ اهل قنسرين وحمص فبايعوهُ وساروا معهُ. ولما قرب مروان من دمشق بعث ابرهيم لقتاله الجنود مع سليمان بن هشام بن عبد الملك وكان جيشهم مائة وعشرين الفاً وجيش مروان ثمانين الفاً، فاقتتلوا الى العصر فانهزم عسكر ابرهيم وهرب سليمان مع من هرب الى دمشق، وبعد ذلك جاءَ ابرهيم الى مروان وخلع نفسهُ من الامر وسلمهُ الى مروان وبايعهُ طائعاً وعاش بعد ذلك الى سنة ١٣٢ هـ (٧٥١م) وقتل في من قتل من بني أُميَّة في وقعة السفاح الآتي ذكرها. وكان نقش خاتمه : «توكلت على الحيّ القيوم.»

مروان بن محمد بن مروان بن الحكم : وكنيتهُ ابو عبد الملك، هو رابع عشر خلفاء بني أُمية وآخرهم، بويع بالخلافة في دمشق سنة ١٢٧ هـ (٧٤٦ م) وكان ابيض شديد الشهلة ضخم الهامة قوي الجسم ربع القامة كث اللحية ابيضها ذا بلاغة وفصاحة. لقب بالحمار لصبرهِ على التعب والمشقة. وكان من خير الخلفاء واكثرهم حميّةً وعزماً وغيرةً على الاصلاح ولكنهُ جاءَ وقد دبَّ الفساد في جسم الدولة الاموية فانقسمت على نفسها. فقام من بني امية غير واحد يطلب الخلافة لنفسهِ.

واستطاع مروان بتعقله التغلب عليهم .

ومن الاحداث في ايامه ان اهل حمص عصوهُ فحاربهم واخضعهم . ثم ثار عليه اهل غوطة دمشق فارسلَ عشرة آلاف فارس بقيادة ابي الورد بن الكوثر وعمرو بن الصباح فنهبهم العسكر واحرقوا المزة وقرى غيرها .

وعقب ذلك خلاف اهل فلسطين فكتب مروان الى ابي الورد يأمرهُ بالمسير اليهم فسار وانتصر عليهم . ثم ثار على مروان سليمان بن هشام في سبعين الفاً من اهل الشام فالتقاهُ مروان بارض قنسرين وحاربهُ وقتل من عسكره ما يزيد على الثلاثين الفاً .

وفي ايامهِ ايضاً ظهرت دعوة بني العباس في خراسان . وبنو العباس ينتسبون الى العباس بن عبد المطّلب بن هاشم . والعباس عم النبي . وقد دعوا الناس الى مبايعتهم بالخلافة اولاً سراً ، فاجابهم الناس الى ذلك ومكثوا يكتمون الامر الى ان اظهروهُ سنة ١٢٩ هـ (٧٤٨ م) وكان مدبر الثورة رجل منهم يسمّى ابرهيم وهو ابن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس ويلقب بالإمام وكان يقيم بالحُمَيمَة احدى قرى الشام فعلم بسرّه نصر بن سيّار احد عمال مروان فكتب الى الخليفة هذه الابيات :

أرى تحت الرمادِ وميض نارٍ
ويوشك ان يكون لها ضرامُ

فان لم يطفِها عقـــلاءُ قومٍ
يكون وقودَها جثثٌ وهـامُ

فانَّ النـار بالعودين تذكو
وانَّ الحرب أولهـــا كلامُ

وقلتُ من التعجب : ليت شعري
أأيقاظٌ أُميَّـةُ أم نيـامُ؟

فأمر مروان عاملهُ بالبلقاء أن يسيّر اليه ابرهيم فشدَّه وثاقاً وبعث به اليه فألقاه مروان بالحبس في حرّان حتى مات. وقيل انه مات مسمَّماً. فهرب أخواه أبو العباس وأبو جعفر المنصور وعمومتهما الى الكوفة وذلك في المحرّم سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) فأقاموا بها شهرين مستخفين.

ثم ظهروا في شهر ربيع الاول فبويع لابي العباس السفاح وعُزِّيَ في أخيه ابرهيم الامام الذي كان قد توفي. فسيَّر السفاح عمهُ عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس في مئة وعشرين الفاً لمقاتلة مروان فلقيهُ على الزاب قرب الموصل. فانهزم مروان وتبعه عبد الله حتى نزل قريباً من حرّان. فواقعه فيها فانهزم هارباً في نفرٍ يسير من خواصه مارّاً بالموصل فحرّان فحمص فدمشق ففلسطين. وورد الى عبد الله كتابٌ من السفاح يأمرهُ

بان يرسل اخاهُ « صالح » في طلب مروان . فسار صالح في طلبهِ وهو منهزم امامهُ حتى دخل نيل مصر فادركهُ صالح في كنيسة في بوصير من اعمال مصر فطعنهُ برمحٍ فقتلهُ ليلة الاحد سابع وعشرين ذي الحجة. واحتزّ رجلٌ من اهل الكوفة رأسه فأرسلهُ صالح الى السفّاح وكتب اليهِ :

قد فتح اللهُ مصراً عنوةً لكُمُ
وأهلَكَ الكافرَ الجعديّ اذ ظلما

وكانت مدة خلافة مروان خمس سنين وعشرة اشهر ونصفاً ولهُ من العمر تسع وخمسون سنة . وكان يلقّب بحمار الجزيرة لصبرهِ في الحروب وشجاعتهِ فيها ، وبالجعدي لانه تعلّم من الجعد بن ادهم مذهبه في القول بخلق القرآن والقَدَر. وكان نقش خاتمهِ : « **اذكر الموت يا غافل .** »

خاتمة

ان جميع خلفاء بني اميّة من معاوية الى مروان بن محمد اربعة عشر خليفة .

ومدة خلافتهم منذ خلص الامر لمعاوية الى ان قتل مروان احدى وتسعون سنة وتسعة اشهر .

ثم تفرقوا بعد قتل مروان بن محمد في البلاد وتمزّقوا كل ممزّق .

حضارة العصر الاموي

ولغته وديانته

ان العصر الذي تمتعت فيه المملكة العربيـــة في سوريا بالعظمة والمجد والسلطان كان عصر الخلافة الاموية الذي تمّت فيه جميع الفتوح المهمـــة من تخوم الصين الى شواطىء اوروبا وافريقية رغماً عما احدث انتقال الخلافة لبني امية من الانقلاب العظيم في تاريخ الاسلام . لانها كانت في زمن الراشدين خلافة دينية فصارت في ايام الامويين خلافة ملكية . وكانت شوروية فصارت ارثية ، واصبحت دمشق المتاخمة لحدود البادية مركز الخلافة ومقر الملك وعاصمة المدنية العربية والحضارة الاسلامية ، فكانت كلمة الخليفة اذ ذاك مسموعة مطاعـة من مفقس الموج على شواطىء البحر الاتلنطيكي الى مرمى الثلوج على جبال حملايا.

اللغة : اما اللغة القومية فكانت لغة الدولة، وبقيت في معظم عهدها الاموي الزاهر محتفظة بصبغتها البدوية العربيـة . فكان خلفاؤها عرباً وجندها عرباً وقوادها وعمالها من العرب وكذلك كتّابها وقضاتها وسائر رجال حكومتها.

وكان الخلفاء يرسلون اولادهم الى البادية لاتقان اساليب البدو وآدابهم . فضلاً عما كان شائعاً في ايامهم من عادات الجاهلية كالمفاخرة والمناشدة فكان اهل الكوفة يخرجون الى ظاهرها ليتناشدوا الاشعار واهل البصرة يخرجون الى « المربد » للغاية نفسها حتى اصبحت الثقافة العربيّة ثقافة كل فرد وكل طبقة من تلك الامبراطورية الواسعة التي لم يبلغ العرب من العز والسؤدد ما بلغت اليه .

الديانة : ولما كان العرب المسلمون همهم في الدرجة الاولى جباية الجزية وجمع الاموال من ابناء البلاد الاصليين لم يكن من صالحهم الاقتصادي ان يعتنق ابناء البلاد المغلوبة دين الغالب لان الجزية تسقط في الاسلام .

حضارة العرب في دولهم وامارتهم

ما كاد خلفاء المسلمين وملوكهم يتولون في المشرق شؤون دولة واسعة الاطراف طالما تأصلت في قلوب افرادها عادات ملوك الجاهلية حتى تجلّت فيها مظاهر الحضارة بما زادوه على ترتيبات قيصر وكسرى والنجاشي وما سنّوه من الانظمة الجديدة التي اقتضاها روح ذلك العصر .

فبدّلوا الردْف الذي كان في الجاهلية نائب العاهل « الملك الاعظم » وجليسه الخاص برئيس الوزراء او الوزير الاكبر وخلعوا عليه الجبة والعمامة . ودفعوا اليه ختم الخليفة ليختم به السجلات . وقلدوا الامارة والوزارة لعمالهم ووسعوا صلاحياتهم ليجبوا الخراج ويكافحوا الغلاء فيراقبوا الاسواق ويمضوا الاحكام المتعلقة بدعاوي الغش بالمكاييل والموازين ، واستنابوهم في القضاء للفصل بين الخصوم والنظر في صالح الطرقات والابنية وتصفّح الشهود والامناء والنواب وغير ذلك .

ووضعوا على ابوابهم الحاجب الذي كان يقوم بتقديم اركان الدولة واصحاب المصالح للمثول بين يدي الخليفة .

واتخذوا بيت المال ورتبوا ديوان الانشاء والاعمال وديوان الختم وديوان قاضي القضاة وديواني الحرب والعرض المختصين بترتيب انظمة الجند وديوان تنظيم البريد وحزم الكتب. وعينوا رئيساً لكل ديوان وكاتباً للسر. وشرطةً تحفظ الامن في مدن الامبراطورية ويدعى رئيسها «صاحب الشرطة». وتقيَّد الخلفاء بواجب حفظ الدين. وخططهُ: الإمامة في الصلاة والفتيا والجهادِ وملاحظة امور المساجد وضرب السكة.

وهكـــذا قيَّض الله للعرب ان يكون لديهم امبراطورية واسعة منظمة سارت شوطاً بعيداً في الحضارة والتمدين بفضل التـــدابير التي اتخذوها لتقوية كيان امبراطوريتهم ولاسيما في نظام التفتيش الدقيق الذي كان نظّارهُ يشرفون على جميع دواوين الدولة.